

ثقافة الاغتراب وتحصين الذات

2004/3/14م

الدكتور محمد شقير

يجب ان يكون واضحاً ان ما نقصده بثقافة الاغتراب هو تلك الثقافة التي تجعلنا نعي ذاتنا في مقابل الغرب، والتي تمنحنا القدرة على فهم الغرب كما هو في الواقع، لا كما يريد ان يظهر نفسه، والتي يمكن ان نحدد من خلالها ما يجب ان نفعله في مواجهة الغرب، وكيف يجب ان نتعامل معه على ضوء معرفتنا به. ان وعي الذات هو من اهم الامور التي يجب ان نوليها اهمية خاصة. انما تعني وعي التاريخ والجغرافيا والدين والحضارة والتراث. ان وعي الذات سوف يؤدي الى تأصيل تلك الذات، لان ما نتحدث عنه هو الذات الجمعية الضاربة جذورها في التاريخ والحضارة والتي تمتلك قيمها ومفاهيمها واخلاقها ومعتقداتها، ولم تعلن القطيعة مع تلك القيم والمبادئ والمعتقدات، بل تعيش معها حالاً من التواصل والتفاعل، ان تأصيل الذات لا يعني، في المقابل، القطيعة مع العصرية ومفاهيم العصر، بل هي تتطلب التعامل مع جميع نتاجات العصر، لكن على اساس معاييرنا وآلياتنا وقيمنا. وبالتالي، فإن التحصين للذات يتطلب تأصيل تلك الذات، ولا يمكن ان نصل الى التحصين من دون التأصيل، اذ ان عدم تأصيل الذات سوف يجعلها عرضة اكثر الى ثقافة التغريب، لان مناعة تلك الذات، سوف تكون هشّة، وهو ما سوف يتيح للمفاهيم الغازية بالتغلغل في حشد المفاهيم المكتسبة لتبني من ثم آلياتها ومعاييرها، عاملة على تحييد وابعاد المعايير المنبثقة من الثقافة الاصلية، ومحاولة بسط سلطتها، الى ان نغدو امام انسان متغرب في فكره ومفاهيمه وقيمه وموازينه ونظراته للامور. ان سيادة تلك المفاهيم سوف تمهد لسيادة من نوع آخر، لأن تحيل مرجعيتنا الفكرية من مرجعية اصيلة الى مرجعية (مغربية)، وهو ما سوف يؤدي الى نوع من التبعية الفكرية والثقافية. وهذه التبعية الثقافية

سوف تقود الى تبعية سياسية واقتصادية... مما سوف يؤدي الى استبدال تلك الذات بذات اخرى، في ثقافتها وفكرها ومفاهيمها.

واذا كان واقعاً ان القطيعة المعرفية ليست واردة في عالمنا المعاصر، بل اذا كان مطلوباً الوقوف على جميع النتاجات المعرفية التي تنتجها مختلف المنظومات الفكرية والعلمية، يصبح من المطلوب ان نبادر الى فهم الغرب، والى الوقوف على جميع انجازاته العلمية ولكن المطلوب ان نفهم الغرب كما هو عليه في الواقع، لا كما يريد ان يظهر نفسه، وخصوصاً من خلال وسائل اعلامه او اجهزة اسشراقه، وما نعينه تحديداً تلك الوسائل والاجهزة الموظفة لاهداف وغايات مكشوفة.

فاذا كان المطلوب تحصين الذات قبالة الغرب، فهو يتطلب منا تمييز الحقائق عن معطيات الاعلام الكاذب والمضلل، اذ ان معرفة تلك المعطيات المسمومة سوف يساعدنا على حماية انفسنا ومجتمعنا منها، فضلاً عن ان معرفة الحقائق سوف تساعدنا على الاطلاع على جملة من التجارب التي قد نستفيد من بعضها او نتجنب اخرى.

بل ما يمكن قوله هو ان فهم الغرب يعتبر احد العوامل المساعدة على تحصين الذات، لان فهم الغرب على حقيقته سوف يسقط تلك الهالة الزائفة التي طالما مارست تأثيرها في مجتمعاتنا والتي اغرت العديدين ودفعتهم انطلاقاً من حبههم للظهور، أو ميلهم للتميز، او بدافع من التقليد الاعمى، او نتيجة لعقدة نقص - ولربما حقارة لدى البعض الى التماهي مع بعض انماط الحياة الغربية وشكلياتها السطحية. ويا ليت ان هذا التقليد كان لتلك العادات والانماط الايجابية الموجودة في المجتمع الغربي، وانما لتلك الامور الفارغة والمبتذلة والمنحطة.

وبمقدار ما يزداد فهمنا للغرب بمقدار ما تنحسر تلك الهالة التي القت بثقلها على مجتمعاتنا نتيجة للتقدم العلمي والتقني والتكنولوجي من جهة وللخواء الفكري وافتقاد الاصاله من جهة اخرى، وبمقدار ما تنحسر تلك الهالة بمقدار ما تصبح الامكانية اكثر للتعامل العلمي مع الغرب ولاكتشاف العديد من الثغرات في الثقافة الغربية وملاحظة اكثر من ضعف في الفكر الغربي، وهو ما يتيح لنا ان نتجنب تلك

المفردات الثقافية والمعطيات الفكرية التي لا تنسجم مع معاييرنا ومفاهيمنا، وبالتالي فان مقدرتنا على
تحسين ذاتنا سوف تكون اكبر.

وتبغى الاشارة هنا الى قضية رئيسية، وهي ان فعل التأصيل لا يرتبط بجانبه المعرفي البحت فقط، بل
يجب ان يتعدى هذه المساحة الى تكوين شبكة من المفاهيم القادرة على انتاج جملة من المشاعر
والاحاسيس والقيم التي تتركز على ارض صلبة من الافكار والمعتقدات والمبادئ.
ان التراث الاسلامي يزخر بجملة من المفاهيم التي تهب بشكل مباشر وعملي المجتمع حصانة فاعلة
وصلبة، سواء ما كان يرتبط بجانبه الفقهي او الاخلاقي او التربوي او الفكري، تلك المفاهيم المستمدة
من النص الديني الاسلامي، والتي تحتاج الى تعويها وتفعيلها وتسييلها، اي ان وجودها في صيغتها
النظرية لا يفي بالمهمة، بل المطلوب هو تحويل تلك المفاهيم الى ثقافة حية وعملية من خلال عرضها
وتقديمها بمختلف الاساليب والبيانات التي تكفل وصولها الى اقتناعات افراد المجتمع وعقولهم ووجدانهم
ومشاعرهم... مستفيدين في قيامهم بتلك المهمة من جميع التقنيات العلمية.

استاذ في الحوزة العلمية